



حماية البيئة واجب إنساني مشترك

الأب ميغيل آنخل أيوسو

غويكسوت الكومبوني

رئيس المعهد البابوي للدراسات

العربية والإسلامية

سيدي الرئيس،

أصحاب السمو والسعادة،

سيداتي سادتي،

اسمحو لي - باديء ذي بدء - أن أعبر لكم عن عظيم امتناني لدعوتكم لي للتفكير معكم في موضوع حماية البيئة الذي يعتبر واجباً مشتركاً بين جميع البشر. بصفتي رئيس المعهد البابوي للدراسات العربية والإسلامية في روما، أؤكد لكم أن هذا الموضوع الحيوي يشكل أحد سبل الحوار بين المؤمنين المنتمين لتقاليد دينية مختلفة.

بالفعل فإن مستقبل كوكبنا لهو موضوع من الأهمية بمكان، وهو بطبيعة الحال يهم جميع الإنسانية. ولكن للمؤمنين في هذا الصدد مهمة خاصة. فهم يفهمون أن العالم ليس وليد الحتمية أو الصدفة، ولكنه مشروع رائع، الله وحده متحكم بأسراره، لأن منه مأتاه وإليه مآله. لهذا فمن واجب المؤمنين ومسؤوليتهم التصرف بما يجعل العالم يحقق ويستجيب لما خلقه الله من



أجله: حيث يتعلّق الأمر بمشروع ديناميكيّ قرر الله من خلاله، بمطلق حرّيته ومن منطلق محبّته، أن يطلب تعاون الإنسان.

بالرجوع إلى العلاقات بين المسلمين والمسيحيين، يمكننا التأكيد أن تقاليدنا الدينية تتفق على مهمّة مشتركة: المؤمن المسلم يعلم أنه "خليفة" لله في الأرض، وفي إسلامه لخالقه يرى نفسه مدعوًا، في مغامرته الإنسانية، لأن يكون مسؤولاً على الخليقة.

من الجانب المسيحيّ، ومنذ الصفحة الأولى من الكتاب المقدّس، في سفر التكوين، نجد أن الله، وبعد أن أتمّ الخلق ورأى أنه جميلٌ، قال لبني آدم: "انموا واكثروا واملأوا الأرض وأخضعوها وتسلبوا على أسماك البحر وطيور السماء وكلّ حيوان يدبُّ على الأرض"، (١: ٢٨).

وهكذا نرى إلى أي مدى يتفق تقليدانا الدينيان بشأن خلق الله للعالم، ممّا يدعونا إلى تعاون موسع.

لقد أتيت لي الفرصة - في الأيام القليلة الماضية - أن أشارك في سرقسطة (إسبانيا) في مؤتمر دولي حول حماية البيئة، وطلب منّي أن أتناول إسهام التقاليد الدينية، انطلاقاً من رؤانا المختلفة، وأن أتحدّث خاصة عن المفهوم الإسلامي في تقدير الطبيعة وإسلام الخلق للخالق؛ فكان عليّ أن أبين كل ما من شأنه أن يسهم في الحفاظ على المحيط، أي حماية البيئة. فالإنسان الذي خلقه الله يتواجد في مركز الخليقة، كعبد لله وخليفة له تعالى في الأرض، حسب رسالة الله في القرآن الكريم.



وبالفعل خلق العالم من العَمَاء من دون تفاوت ولا فُطور، سورة المُلْك (٦٧: ٣-٤). السَّمَاءُ والأَرْضُ، اللَّيْلُ والنَّهَارُ، النُّجُومُ والكَوَاكِبُ، كلُّ شَيْءٍ يُسْجَدُ لِلَّهِ لِعِبَادَتِهِ سُبْحَانَهُ، النَّحْلُ (١٦: ٤٩)، الرَّحْمَنُ (٥٥: ٦). والقرآنُ مَلِيءٌ بِذِكْرِ مَخْلُوقَاتِ اللَّهِ، حَتَّى الذُّبَابِ مُذْكَورٌ، مَرُورًا بِالنَّمْلِ وَالنَّحْلِ. فَلَقَدْ سَخَّرَ اللَّهُ لِلْإِنْسَانِ كُلِّ مَا فِي السَّمَاءِ والأَرْضِ.

في هذا السِّياق، تبدو الكوارثُ البيئيةُ خروجًا على السننِ الإلهيةِ، مُلحقةٌ الأذى بكلِّ الإنسانيَّةِ، ﴿ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ لِيُذِيقَهُمْ بَعْضَ الَّذِي عَمَلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾، الروم (٣٠: ٤١).

بالتأكيد للإنسان الحقُّ في الاستفادة من ثروات الأرض، ولكنه يجب أن يفعل ذلك باعتدالٍ وانسجام، بتجنب المخاطرة بصلة الإنسان بالله، وتحاشي كلِّ أشكال الغلوِّ والمبالغة التي تُضربُ بني جنسه، وبالعمل مع جميع المخلوقات التي تشارك الإنسان العيشَ فوق الكوكب الأزرق.

لقد تأثرتُ بالمثل الذي ضربه النبي محمد، والذي وجدته في الحديث، ففهمت أكثر كيف كان النبي - في حرصه على حماية البيئة - سباقًا لأوانه، ورائدًا في الحفاظ على الطبيعة والتوازن المنسجم بين الإنسان والطبيعة. حيث روى لي صديق مسلم هذا الحديث: "إذا قامت على أحدكم القيامة وفي يده فسيلة فليغرسها"، (رواه أحمد في مسنده، والبخاري في الأدب المفرد).

وباعتباري مسيحيًا، ألحظُ كيف تَضَعُنا مصائرنا المشتركة في الفضاء نفسه، ضمن إنسانية واحدة، وفي ظلِّ قيمٍ نُؤمنُ بها جميعًا، على سبيلِ المثال:



العلاقة بالخلق، والدعوة المشتركة للتعاون معاً للحفاظ على الكوكب، انطلاقاً من تقاليدنا الدينية الخاصة.

وهكذا ينبغي أن نكون سعداء ومتفائلين، لأن تقاليدنا الدينية قد أسهمت كثيراً في تطوير وعي بيئي على المستوى الكوني. وفي هذا السياق، أسمحوا لي أن أعبر عن رضائي على احتواء نداء مكة للحوار بين الأديان على إشارة واضحة إلى القضايا البيئية، ذلك أن " حماية البيئة واجب مشترك بين جميع البشر " .

أريد أن ألفت الانتباه بشكل خاص لأهمية تربية المنتمين لتقاليدنا الدينية على تطوير علاقة احترام تجاه الطبيعة، والتي بدورها تشجع الاحترام فيما بيننا نحن البشر...

باعتباري مسيحياً، لا أريد أن أبرز ما يقوم به المؤمنون المسيحيون من أجل احترام الطبيعة وأمثالهم من البشر، ولكنني بالأحرى أنظر بامتنان للجهود المبذولة من قبل العالم الإسلامي لأجل نشر الوعي بأهمية حماية البيئة. من دون ذكر أسماء من أخلصوا لخدمة الإنسانية من خلال عمل شديد الإيجابية لتكوين الأيكولوجيين المسلمين، والتعاون مع المنظمات الأخرى، المسيحية منها بصفة خاصة، من أجل توعية المجتمع بشأن مشكلة مشتركة، لكوننا جميعاً أبناء العائلة الإنسانية.

وبهذه الطريقة مكنتي التحضير لمؤتمر سرقسطة من البحث مجدداً في التراث الإسلامي لأقف على مدى العناية التي تحظى بها البيئة في الإسلام، ومدى توافق لاهوت الطبيعة في الإسلام مع قناعات واهتمامات تقليدي المسيحي، أعني: مفهوم الخلق، جمال وكمال خلق الله، مكانة الإنسان



المركزية في الكون، وبالتالي مسؤوليته على الخليقة التي استأنه الله عليها،
مُوكلاً إليه تنميتها واستعمالها بانسجام واعتدال.

لأحظ البابا بنيدكتوس السادس عشر، في رسالته بمناسبة اليوم العالمي
للسلام لسنة ٢٠٠٨، أنه " بالنسبة للعائلة الإنسانية، الأرض هي بيتنا، الوسط
الذي أعطاه لنا الله الخالق لنسكنه بطريقة خلاقة ومسؤولة. علينا أن نحسن
رعاية المحيط: فقد أوكل للإنسان حتى يحفظه ويحميه في حرية مسؤولية،
واضعاً نصب عينيه كميّار عملي خيراً للجميع " (الفقرة: ٧). بصفتنا مؤمنين
ومن سكان الأرض، نحترم الخليقة نفسها، ولدينا اهتمام مشترك وهو
الحرص على حماية الوسط الذي نعيش فيه سويةً.

قال البابا يوحنا بولس الثاني " باتّباع وحي الضمير وتعاليم ديننا، فإن
المؤمنين، وبالرغم من اختلاف رؤاهم حول موضوعات شتى، سيكونون
قادرين على العمل معاً من أجل مواجهة المشاكل العاجلة التي تعترض
العائلة الإنسانية " .

فهكذا، وبغض النظر عن اختلافاتنا، فإن مهمتنا المشتركة هي التعرف على
نقاط اتفاقنا، لأننا أعضاء في العائلة الإنسانية نفسها. إن موضوع حماية البيئة
يمثل حقاً نقطة اتفاق، ومهمة مشتركة للسهر على حماية مدينتنا الأرضية في
روح توحد بين تقاليدنا الدينية المختلفة، للدفاع معاً عن الحياة الإنسانية وحياة
الكوكب، ولبناء عالم أفضل، عالم يسوده السلام مع الخليقة، ومع جميع
إخوتنا في الإنسانية.

شكراً جزيلاً لكم على حسن انتباهكم.